السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية -2
أسباب إخفاق الإسبان في التوسع نحو المناطق الداخلية- 1

أ.د. عبد القادر فكاير

من الملاحظ أن الأسبان قد تركز احتلالهم في بعض المدن الساحلية دون أن يتمكنوا من التوغل إلى المناطق الداخلية للبلاد ، باستثناء قدرة وصول قواتهم العسكرية إلى تلمسان ،وإلى بعض ضواحي معسكر، وهي أبعد مكان من الساحل الغربي. وهذا يعود حسب تقديرنا إلى عوامل عديدة نذكر منها ما يلي :

1 ـ استماتة الجزائريين في الدفاع عن أراضيهم :

كثير من الكتاب الغربيين من تجاهلوا، أو قزموا دور السكان المحليين في الدفاع عن أرضهم خلال معالجتهم لبعض الأحداث ، أو المواقف الصعبة التي مرت بها هذه البلاد عندما كانت تتصدى لغارات الأساطيل الأوربية. تحدث التمقروتي عن شجاعة الجزائريين عندما توقف بمدينة الجزائر خلال رحلته إلي اسطنبول التي وقعت بين 1589-1591. فذكر أن << رياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في بلادهم . . فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو...>> .

وكان الأهالي مجندين في أعمال التعبئة العامة، عندما تستدعي الظروف . فقد ورد في تقرير سري أسباني جاء فيه << أخبرنا الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة في ثلاث جهات وعلى مسافات شاسعة، وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة، لكن العمل لم يتم إلى الآن نظرا لعدم وجود البنائين العارفين. ويقولون هنا أنهم سيستعينون بألف خمسمائة ممن العرب المحيطين بالجزائر من أجل إنجاز العمل >>. كما كان السكان في كثير من الأحيان يعملون دور الحاجز في منع توسع الأسبان نحو ضواحي المدن الساحلية التي وقعت تحت أيديهم ، إذ يصطدمون بالمقاومة ، عندما كانوا يحاولون التغلغل إلى الداخل .

2 ـ انفتاح الجزائر على العناصر الأجنبية:

ينكر الدور الذي قام به العنصر البشري الوافد إلى الجزائر في ظل تلك الظروف، حيث وجدوا التسامح والترحاب خاصة المسيحيين ذوي الأصول الأوربية الذين اعتنقوا الإسلام ، فلم يشعروا بأي تمييز يفرقهم عن بقية السكان، وهذا ما أدى إلى ارتباطهم بهذه الأرض، حيث تمكن الكثير منهم بلوغ مكانة مرموقة سواء في الجهاز الإداري أو العسكري. إن توافد العنصر الأجنبي الإسلامي على الخصوص على الجزائر لا يعود فقط

إلى بداية القرن السادس عشر، بل يرجع إلى عهود سابقة بكثير، ذكر جون وولف << قبل أن يضع خير الدين جماعة "القراصنة" تحت حماية الباب العالي ، كان المجندون الشرقيون والأندلسيون وسكان المغرب الذين تولوا الحروب البحرية هم الذين يشكلون حقا لعمود الفقري لقوة سفن القرصنة >>.

ففي عهد عروج كان الجيش يتشكل من المجاهدين الجزائريين والتونسيين والمغاربة والزنوج، وكذلك من الأسرى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام. أما عدد المحاربين الأتراك الذين كانوا يحاربون في صفوف عروج وأخيه خير الدين في سفنهم، فإنهم قليلون جدا. وهم ينتمون إلى عدة جنسيات مختلفة من يونان وشركس ورومليين وألبانيين . وكثيرا ما كان النصارى الذين يقعون في الأسر يعتنقون الإسلام، فقد جاء في أحد الدراسات أنه من مجموع 25 ألف أسير في مدينة الجزائر في القرن السادس ، غير عدد معتبر منهم دينه من أجل تحسين أوضاعهم. وكان من جهتهم الرياس والبحارة في أوقات لاحقة يجندون من الأجانب المسيحيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي إما كجنود بحارة ، وإما في الجيش الانكشاري ، إلى جانب الجزائريين من مختلف القبائل وأهل الأندلس . وهناك من التحق منهم بهذا الجيش من أجل المشاركة في الغارات البحرية قصد الحصول على الغنائم . وكان يطلق عليهم نعت العلج ، بينما كان النصارى يدعونهم بالمرتدين (Renégats).

3- إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

إن اتصال سكان مدينة الجزائر بالسلطان سليم جاء وفق رسالة مؤرخة في سنة 925 الموافق لـ26أكتوبر 1519، وقد حملها وفد باسم قضاة وخطباء وفقهاء وأئمة وتجار وأعيان جميع سكان مدينة الجزائر. يعود هذا الأمر منذ أن ألح مجلس أعيان مدينة الجزائر على خير الدين بالبقاء بينهم حيث قالوا له : << أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ، ولا نسمح لك بذلك فإن الله تعالى قد نصرنا بك على العدو ...يتعين جلوسك في هذه المدينة >>. فلما أصروا عليه أن يبقى بينهم ، بين لهم أن حماية المدينة من تهديدات الكفار وكان رد السلطان على البعثة والخطاب بالإيجاب ، إذ سارع إلى تسمية خير الدين بايلرباي ، واعتبر أن أي اعتداء خارجي على الجزائر يعد اعتداء على الدولة العثمانية ، وأرسل إلى الجزائر قطع من سلاح المدفعية ، وكميات من الذخيرة الحربية ، وألفين من جنود الإنكشارية ببنادقهم . كما رخص بانتقال المتطوعين إلى الجزائر ، وقرر منح الذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقررة للجيش الانكشاري تشجيعا لهم على الانضمام على كتائب المجاهدين.وقد استجاب لنداء السلطان أربعة آلاف متطوع التحقوا بالجزائر.

وهكذا أدى هذا الاتصال إلى اعتبار الجزائر أول إقليم في شمال إفريقيا والبحر المتوسط يدخل ضمن لواء الخلافة العثمانية استجابة لسكان مدينة الجزائر، وقد أدى ذلك إلى الدعم العثماني للجزائر بالجنود والسلاح، وساعد الدولة الجزائرية الفتية على الوقوف في وجه العدوان الأسباني وإفشال مخططاته. وأصبحت إثر ذلك إحدى إيالات الدولة العثمانية . وفي المقابل اعتمد العثمانيون كثيرا في حروبهم البحرية ضد النصارى في البحر المتوسط على البحرية الجزائرية خاصة في القرن السادس عشر.

4 ـ صمود مدينة الجزائر :

إن صمود مدينة الجزائر قد ساعد بشكل كبير على فشل الأسبان في عدم التمكن من القطر الجزائري ، خاصة خلال الحملات الأولى التي وقعت خلال العقدين الأولين من

القرن السادس عشر.هذا الصمود كان وراءه قوى أخرى كانت تحول مياه البحر إلى زوبعة تقذف وحدات الأسطول الأسباني ، وتحطمها في العديد من المرات ، وتمنع من وقوع هذه المدينة في أيدي الغزاة ، وهذا ما جعلها تنعت بالمحروسة. فرغم وجود الإسبان في قلعة البنيون إلا أنهم فشلوا في احتلالها خلال عدواني سنة 1516، 1519. وقد لقيت الحملات اللاحقة نفس المصير. وكانت كل مرة تزداد تحصنا وتعزيز نظام الدفاع انطلاقا من الثغرات التي كان يتم كشف أمرها خلال الغارات المسيحية التي ما فتئت تتعرض لها المدينة من حين لآخر. ولهذا كثرت بها الأبراج ، وزيد من تشديد أسوارها، وتقوية جهزها الدفاعي ، حتى أصبحت قلعة تتهاوى أمامها كل الغارات المسيحية استمرت قرابة ثلاثة قرون.